

الزمن النوعي والزمْنُ الموصول



في الزمن الأول جميعنا متساوون، فابن الـ(18) عاماً في الشرق مثلهُ مَثَل ابن الـ(18) سنة في الغرب؛ لكنَّ الفارق هو في السنَّ النوعيَّ، كم أنجز ذاك في (18) سنة، وكم أنجز هذا في الفترة المماثلة.

السيِّدة فاطمة الزهراء (ع) توفيت ولها من العمر (18) سنة كما في بعض الروايات، وإذا أسقطنا شيئاً من الطفولة الأولى التي لا تُمَثَّل سنِّيَّ التكليف (المسؤولية الشرعية) فإنَّ مجموع عمرها العملي لا يتعدَّى العقد من الزمن؛ ولكننا لو درسنا (الزمن النوعيَّ) الذي جعل هذه الفتاة أو المرأة سيِّدة لنساء العالمين في فترة وجيزة، لرأينا أنَّ زمن الزهراء (ع) النوعيَّ كان مفعماً وممتلئاً ومشحوناً بالعطاء.

هذه الخصوصية في هذا الزمن ليست استثنائية، أو فاطمية، أو زهرائية فحسب.. نعم، ليس لدينا سيِّدة نساء العالمين من الأولين والآخرين غيرها (مريم كانت سيِّدة نساء عالمها فقط)؛ لكنَّ تعبئتها لعقد من الزمن بالعطاء الذي يُعادل عقوداً منه، ينفعنا في وصف الزمن النوعيَّ بأنَّه (عصير الزمن) الذي

تُعْتَصِرُ فِيهِ كُلُّ دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِهِ لِيُسْتَخْرَجَ كُلُّ مَا فِيهِ مِنْ مَاءٍ وَحَلَاوَةٍ وَعَافِيَةٍ وَإِنْجَازٍ .

واللّافِت في الزمن النوعي الذي يُمَثِّلُ عَصَاةَ الزَّمَنِ أَنْزَهُ مُتَاحٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا، وَلَوْ تَأَمَّلْنَا فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَعْدِلُ أَوْ تَسَاوِي بَيْنَ عَمَلٍ وَاحِدٍ وَعِبَادَةِ سَنَةٍ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، لَرَأَيْنَا أَنَّ (سَاعَةَ تَفَكُّرٍ) مِثْلًا تَعَادِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ، أَوْ (قِضَاءِ حَاجَةِ مُؤْمِنٍ) تَسَاوِي (سَبْعِينَ حِجَّةً) وَهَكَذَا. وَالْمُرَادُ أَنَّ قِيَمَةَ الْعَمَلِ لَا بِالْقِيَاسِ الزَّمْنِيِّ، بَلْ بِمُؤَدَّاهِ الْمَجْتَمَعِيِّ أَوِ النَّفْعِيِّ أَوِ الْإِصْلَاحِيِّ، وَبِهَذَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ قَوْلِ النَّبِيِّ (ص) يَوْمَ الْخَنْدَقِ: «لِمُبَارِزَةِ عَلِيٍّ لِعَمْرُو بْنِ وَدٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمَالِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [1] مِنْ غَيْرِ أَنْ يَثِيرَ الْقَوْلُ فِينَا اسْتِغْرَابًا، لِأَنَّ النَّبِيَّ (ص) لَمْ يَقْسِ الضَّرْبَةَ بِالْوَقْتِ الَّذِي اسْتِغْرَقْتَهُ، بَلْ بِالْأَثَرِ الَّذِي تَرَكَتَهُ، مِمَّا يَجْرُنَا إِلَى اسْتِيعَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَكَتُ بُ مَّا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس/ 12).

إِذْ إِنَّ حِسَابَ الْأَعْمَالِ لَا يَنْحَصِرُ بِصِلَاحِ الْعَمَلِ أَوْ فَسَادِهِ، بَلْ بِالْآثَارِ الْمَتْرُتِّبَةِ عَلَيْهِ أَيْضًا، وَانْسِجَامًا مَعَ ذَلِكَ وَمِنْ رُوحِهِ وَوَحْيِهِ، قَالَ النَّبِيُّ (ص): «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أَجْرِهِمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مَنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا» [2].

وَهَذَا مُؤَشِّرٌ خَطِيرٌ لَا عَلَى أَهْمِيَّةِ وَضُرُرِ الْعَمَلِ، بَلْ عَلَى تَدَاعِيَاتِهِ أَيْضًا، إِذْ قَدْ يَكُونُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي مَبْدَأِهِ صَغِيرًا، وَالْعَمَلُ الْمُنْكَرُ فِي بَدَايَتِهِ مَحْدُودًا؛ لَكِنْ الْأَخْذُ بِهَذَا أَوْ ذَاكَ فِي مَا بَعْدَ يَمْنَحُهُمَا مَدًى أَوْ بُعْدًا زَمْنِيًّا أَوْسَعُ مِنْ دَائِرَةِ الزَّمَنِ الَّذِي تَمَّ فِيهِ هَذَا الْعَمَلُ أَوْ ذَلِكَ، الْأَمْرُ الَّذِي يَدْفَعُنَا إِلَى الْاسْتِزَادَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ وَالنَّفْعِ الْعَامِ الَّتِي لَا تُمَثِّلُ الْبِرْكَةَ الرَّاهِنَةَ فَحَسْبُ، بَلِ (الصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ) أَيْضًا.

إِنَّ مَفْهُومَ (الصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ) مَفْهُومٌ وَاسِعٌ مُتَّسِعٌ يَكْتَسِبُ عَلَى الْأَيَّامِ سَعَةً عَلَى سَعْتِهِ، إِذْ لَيْسَ الَّذِي يَوْقِفُ وَقْفًا مَا يَكُونُ قَدْ أَجْرَى صَدَقَةً جَارِيَةً، وَلَا الَّذِي كَتَبَ كِتَابًا نَافِعًا يَنْتَفِعُ مِنْهُ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ قَدَّمَ صَدَقَةً جَارِيَةً، أَوْ حَفَرَ بئْرًا وَشَقَّ شَارِعًا، وَزَرَعَ زَرْعًا يَأْكُلُ الطَّيْرُ وَالنَّاسُ مِنْهُ، كُلُّ هَذِهِ وَأَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا صَدَقَاتٌ جَارِيَةٌ؛ لَكِنْ كُلُّ قَوْلٍ حَكِيمٍ، أَوْ تَوْصِيَةٍ عَاقِلَةٍ، أَوْ دَرَسٍ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالِاتِّعَاطِ وَالْعِبْرَةِ، وَكُلُّ تَجْرِبَةٍ قِيَمَةٌ تُحْتَدَى وَتُقْتَدَى، سِيَاسِيَّةٌ كَانَتْ أَمْ إِدَارِيَّةً، أَمْ اقْتِصَادِيَّةً، أَمْ مَجْتَمَعِيَّةً، هِيَ صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَلِذَلِكَ لَا حُدُودَ لِلصَّدَقَاتِ الْجَارِيَةِ.

غَيْرِ أَنَّ مَا يَشُدُّ انْتِبَاهَنَا هُوَ صِفَةُ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ (الْجَارِيَةِ) الَّتِي يَشْبَهُهَا الْحَدِيثُ بِالنَّهْرِ الْجَارِيِ

المعمّر الذي لا يتوقّف عن الجريان، أي إنّ قدرته على النفع والإرواء والسقي مستمرّة مادام موجوداً، وإنّ الزمن لا يُلبّيه بل يكسبه ألقاً وتجدّداً، بل كلّما انتفع به منتفع بعث صاحبه الذي تدور مسرح الحياة إلى المسرح من جديد، وزاد في أجره وثوابه أُجوراً مضاعفة، ممّا يعني أنّ عمر الإنسان الذي يعمل عملاً صالحاً لا يُقاس بسنيّ حياته المعدودات، بل بهذا الامتداد الزمنيّ الرحب، وهذا من غاية الألفاظ الإلهيّة بالإنسان العامل الذي يجعل عمله (ناطفاً رسمياً) باسمه حتى بعد حياته، وممّثلاً عنه في كلّ موقف تُستعار فيه صدقته الجارية.

يقول شوقي:

دقائق قلب المرءِ قائله لهُ ***** إنّ الحياةَ دقائقُ وثوانٍ

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها ***** فالذكرُ للإنسانِ عمرُ ثانٍ!

وتعبير (العمر الثاني) دقيق وجميل وذو إيحاء غنيّ له دلالة لا في استطالة العمر فحسب، بل بالحضور الدائم في كلّ مكان وزمان تُسترجع فيه مقولات، وأعمال، ومشاريع، ومنجزات وحسنات العاملين الصالحين.

واستكمالاً لمعاني الزمن النوعيّ وسلّم أُلوياات الزمن، وعصارة الزمن المبارك، فإنّ مفاهيم الإسلام أرحبُ ممّا ذكرنا، إذ ليست (الصدقة الجارية) أو (العمر الثاني) فقط هو الذي يرتجيه العامل في سبيل الله، المبارك النفّاع، بل إنّ عمله الصالح يربطه بسلسلة الصلاح من أولّها إلى آخرها، حيث يكون حلقة مهمّة ومكملة للسلسلة المباركة التي سبقته والتي تليه، تأمّل في معاني الدُّعاء الآتي:

«اللّهُمَّ الحقني بصالح مَن مضى، واجعلني من صالح مَن بقى، وخذ بي سبيل الصالحين، واعنّي على نفسي بما تعينُ به الصالحين على أنفُسهم، ولا تَرُدّني في سوء استنقذتني منه، واختم عملي بأحسنه، واجعل ثوابي منه الجذّة» [3].

ومفاده أنّ يكون صاحبي - يا ربّ - ملحقاً بصالح أسلافي الصالحين، وهو تاريخ طويل ممتد على خارطة الزمن الصالح كلّها، وأن يكون ممتدّاً في حياتي ما أحييتني لا أشدّ ولا أندى ولا أحيدهُ عنه قيد أنملة، بل ويدعو الإنسانُ الصالح إلى استمرار الصلاح في ذرّيته أيضاً؛ «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» (الأحقاف/ 15)، حتى لا تنقطع السلسلة، أو يتوقّف النهرُ الجاري، أو يموتُ العمرُ

بهذا يكون عُمر الإنسان أضعافاً مضاعفة يُخْتزنُ فيه أعمارُ مَن سلفوا من الصالحين، وعمره الممنوح له، وعمر صلاحه الممتد في ذرّيته من جهة، وفي أعماله الصالحة الخالدة المُخلّدة من جهة، وبذلك يضيفُ أعماراً إلى عمره!

[1]- سيرة الأئمّة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني، نقلًا عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة، عن المجلد الثاني من مستدرک الصحيحين عن سفيان الثوري، ج1، ص323.

[2]- ميزان الحكمة، محمّد الري شهري، ج4، رقم الحديث8939، ص566.

[3]- من أدعية السحر الرمضانية (دعاء أبي حمزة الثمالي).